دور القرائن في الاستدلال
وأثرها في عملية تفسير القرآن الكريم

ليث العتابي*

□ مقدمة

إن القرآن الكريم هو الرحمة الإلهية الكبيرة للبشرية جمعاء، وهو الكتاب الذي يبحث عن صديق، ولا يبحث عن عدو، وهو الذي يخاطب الإنسان بكل هدوء وشفافية وتقبل للرأي والرأي الآخر.

لقد سار القرآن الكريم في توضيح استدلالاته سيرًا منطقيًّا عقلانيًّا؛ إذ طلب من الإنسان أن يتفكر، ويتدبر، ويتعقل، ويعتبر، وكل ذلك وفق أسس وأدلة وقرائن متنوعة.

إن القرآن الكريم قد اعتنى بالقرائن، وأعطاها أهمية كبيرة، وبالخصوص في عملية الاستدلال. «إنّ العناية بالقرائن أسلوب عقلائيّ معتمد في مقام التفهيم والتفاهم عند جميع الثقافات، بهدف فهم مراد المتكلّم من قِبَل المخاطبين من جهة، وإيصال مراده إلى أذهانهم من جهة ثانية. وقد قامت سيرة العقلاء فيما بينهم على مراعاة جميع القرائن المحتف بها كلام المتكلّم في عمليّة فهمهم

* باحث من العراق.

لمراده الجدّي من كلامه. ولأنّ القرآن الكريم قد نزل بلغة العرب جريًا على أسلوبهم في مقام التفهيم والتفاهم، ولأنّه لم يخترع طريقة أخرى في هذا الصدد، ولم يردع عنها، بل جرى وفقها، نستفيد بذلك ضرورة العناية ببحث القرائن في فهم أفضل للقرآن الكريم»[1].

إن البحث عن القرائن من البحوث المهمة جدًّا في جميع العلوم، وفي العلوم العربية يعد من البحوث المهمة كذلك، وتتأكد أهميته في البحوث القرآنية التي تتعلق بتفسير القرآن الكريم، إذ يتجلى -هنا- دور القرائن المهم في تبيين وتوضيح دلالات الآيات القرآنية.

لقد بحثت مسألة القرائن في اللغة، وفي الأصول، وكذلك في المباحث القرآنية، لكنها في المباحث القرآنية لم تؤسس تأسيسًا قرآنيًّا، بل اعتمدت على ما بُحث في اللغة وعلم الأصول، وهي تحتاج إلى تقعيد وتأسيس قرآني.

في بحثنا هذا الموسوم بـ(دور القرائن في الاستدلال)، أي دورها في الاستدلال في القرآن الكريم، سنبين القرائن، وأقسامها، ونعطي أمثلة قرآنية من الآيات المباركة عليها، ثم سنركز على السياق كقرينة من القرائن المهمة في القرآن الكريم، على أن نميز ما بين السياق كنظرية، والسياق كدليل.

وقد تناولت في هذا البحث مسألة القرائن في اللغة والاصطلاح، وتقسيمات القرائن اللفظية، والسياق ودوره المهم كقرينة في تفسير القرآن الكريم، ثم بينت مكونات السياق، ودور السياق الدلالي، ثم الخاتمة وأهم النتائج.

□ القرائن: لغة واصطلاحًا

إن الكلام عن القرائن يحتاج إلى بيانها أو تعريفها في اللغة والاصطلاح؛ لأن ذلك أساس كل بحث بأن تُعرف مفرداته لغةً واصطلاحًا.

القرينة في اللغة: إن القرينة هي: «على وزن فعيلة؛ بمعنى مفعولة، من الاقتران»[2]، فالاقتران هو نوع من أنواع الاتحاد أو الاندماج من جانب، ونوع من أنواع الدلالة من جانب آخر.

---

(١) محمود الرجبي، بحوث في منهج تفسير القرآن الكريم، بيروت - لبنان: مركز الحضارة، ط١، ٢٠٠٧م، ص ١٣٥.

(٢) ابن منظور الأفريقي، لسان العرب، مراجعة وتدقيق: يوسف البقاعي وإبراهيم شمس الدين ونضال علي، بيروت - لبنان: منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط١، ١٤٢٦هـ ج٢، ص٣٢٠٣.

القرينة في الاصطلاح: القرينة اصطلاحًا هي: «بيان لما أُريد باللفظ في عرف الشرع والعادة»[٣]. في هذا المعنى الاصطلاحي أخذت القرينة معنى الدلالة، بل هي واضحة فيه أكثر. أو هي: «ما يبين معنى اللفظ ويفسره»[٤]. وقال الجرجاني (ت: ٨١٦هـ) عن القرينة: «القرينة: أمر يشير إلى المطلوب»[٥]. والإشارة إلى المطلوب هي نوع من أنواع الدلالة.

وعلى هذا الأساس فالقرائن هي: الأمارات والعلامات. وهذه الأمارات وقائع مادية ظاهرة[٦]، ومنها الإشارات، والرموز، والدلائل اللفظية وغير اللفظية.

لذا فإن القرائن لها دور رئيس وأساس في الترجيح. ولقد اختلف العلماء في الاعتماد عليها إلى فريقين: فريق يرى فيها وسيلة من وسائل الإثبات المعتبرة[٧]، وفريق آخر يذهب إلى عدم الاعتماد عليها[٨].

لذلك فلا بدّ من بحث أقسام القرائن لما له من أهمية في الفهم، ولمدخليتها في بحثنا هذا، والذي يتعلق بالقرائن، بل بالقرائن في عملية الاستدلال في القرآن الكريم، وهو موضوع مهم جدًّا، ومتشعب، إلّا أننا سنشير إلى الأمور المهمة فيه.

□ أقسام القرائن

إن للقرائن عدة تقسيمات، وهذه التقسيمات تتحدد بحسب ما يراد منها، ويراد منها عدة أمور، وهنا سنبين التقسيمات المهمة للقرائن:

---

(٣) أبو الخطاب الكلوذاني، التمهيد في أصول الفقه، تحقيق: مفيد محمد أبو عمشة ومحمد بن علي بن إبراهيم، مكة المكرمة – المملكة العربية السعودية: مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م، ج١، ص ١٨٣.

(٤) أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي، التبصرة في أصول الفقه، بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٤هـ، ص ٢٢.

(٥) الشريف الجرجاني، التعريفات، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، القاهرة – مصر: دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، ط١، ٢٠٠٤م، ص ١٥٢.

(٦): انظر: محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، بيروت – لبنان: مكتبة لبنان ناشرون، ط١، ١٩٨٩م، ص٥٣٣.

(٧) انظر: فخر الدين الحنفي الزيلعي، تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، القاهرة – مصر: المطبعة الكبرى الأميرية (بولاق)، ط١، ١٣١٣هـ، ج٣، ص ٢٩٩.

(٨) انظر: ابن نجيم المصري، الأشباه والنظائر، بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ، ص٢٤٨.

أولًا: القرائن من حيث الأصل

إن القرائن من حيث أصلها تقسم إلى قسمين هما:

١- **قرائن مقالية (لفظية)**، وهي: «التي يتضمنها الكلام، كقرينة السياق، وقرينة الأسلوب، وقرينة الإعراب، ونحوها»(٩).

٢- **قرائن مقامية**، وهي: «التي تكون خارج إطار الكلام، وتصحبه في بيئته أو أثناء إلقائه»(١٠).

٣- **قرائن دلالية**، وهي: «التي تدل على المقصود من الكلام»(١١).

ثانيًا: القرائن من حيث العمل

قد قُسمت القرائن من جهة عملها، إلى أربعة أقسام هي:

١- **القرائن الدالة**، وهي: «التي تفيد معنى، بدونها لا يفيده اللفظ المنطوق صراحة، من غير صرفٍ لظاهره»(١٢).

وهذه القرينة قوامها وبقائها ببقاء اللفظ المنطوق صراحة، ومع انتفائها لن يتحقق المعنى المراد بسبب انتفاء اللفظ. فإن القرائن الدالة هي ما أفادت معاني وأحكامًا معينة(١٣). وكونها دالة لما لها من دلالة واضحة في إفادة المعنى المراد منها، فهي أمارة على إرادة المعنى الظاهر الواضح البين.

من القرائن الدالة قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾(١٤)، فلفظة (كل) دالة على العموم، وهذا مثال واضح على القرائن الدالة.

٢- **القرائن المرجحة**، وهي: «القرينة المُعينة للمعنى المراد من اللفظ المحتمل لمعنيين

---

(٩) عبد الهادي الفضلي، دروس في أصول فقه الإمامية، مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر، ط١، ١٤٢٠هـ، ج٢، ص ٦٨.

(١٠) عبد الهادي الفضلي، ، دروس في أصول فقه الإمامية، مصدر سابق، ج٢، ص ٦٨.

(١١) عبدالهادي الفضلي، دروس في أصول فقه الإمامية، مصدر سابق، ج٢، ص٧٣.

(١٢) نزار معروف بنتن، القرائن وأهميتها في بيان المراد من الخطاب عند الأصوليين والفقهاء، رسالة دكتوراه، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٢هـ - ١٤٢٣هـ، ص٨١.

(١٣) انظر: محمد بن علي الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، بيروت - لبنان: دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١٩هـ، ص ٤٥٩.

(١٤) سورة آل عمران، الآية ١٨٥.

فأكثر على السواء»[١٥].

لا بدّ في هذه القرينة من بيان الرجحان، أي القوة التي تكون لأحد المتعارضين على الآخر[١٦]. فشرط هذه القرينة أن تكون (معينة) مع وجود (لفظ) محتمل لأكثر من معنى، وخلاف ذلك ستكون قرينة لكنها غير مرجحة.

من القرائن المرجحة قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾[١٧]، فكلمة (عسعس) فعل يطلق ويراد به أقبل، أو أدبر، والمراد به هنا في هَذه الآية المباركة هو (أدبر)، ويرجح هذا المعنى قرينتان هما: قرينة لفظية متصلة، وأخرى منفصلة، أما القرينة المتصلة فهي الآية التي بعدها: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾[١٨]، إذ إنها تفسر المراد بكلمة (عسعس)، وتبين أن القسم واقع على وقت إدبار الليل وإقبال النهار. وأما القرينة الثانية المنفصلة فهو قول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «ساعة الوتر هذه»[١٩].

٣- القرائن المؤكِدة، وهي: «التي تفيد تقوية مدلول الخطاب، فتشمل ما إذا كانت لفظية متصلة أو منفصلة، أو غير لفظية كالقرائن العقلية والحالية»[٢٠].

والقرينة المؤكدة تزيد تأكيد ما سبق ذكره بلفظ مستقل عن اللفظ المؤكد السابق، وتفيد تقويته أيضًا[٢١]، فإن التأكيد يفيد زيادة وضوح المراد باللفظ، ويبعد عنه احتمال إرادة المجاز[٢٢]. ولازم هذه القرينة هو إرادة التأكيد والتقوية للخطاب المطروح، فتكون دليلًا على إرادته من خلال تأكيدها عليه.

---

(١٥) نزار معروف بنتن، القرائن وأهميتها في بيان المراد من الخطاب عند الأصوليين والفقهاء، مصدر سابق، ص٨١.

(١٦) انظر: سعد الدين التفتازاني، شرح التلويح على التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفقه، بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ، ج٢، ص١٠٣.

(١٧) سورة التكوير، الآية ١٧

(١٨) سورة التكوير، الآية ١٨.

(١٩) ابن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت – لبنان: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ، ج٣٠، ص ٩٨.

(٢٠) نزار معروف بنتن، القرائن وأهميتها في بيان المراد من الخطاب عند الأصوليين والفقهاء، مصدر سابق، ص ٨٢.

(٢١) انظر: فخر الدين الرازي، المحصول في علم أصول الفقه، تحقيق: طه جابر العلواني، بيروت – لبنان: مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤١٨هـ، ج١، ص ٢٥٣.

(٢٢) انظر: بدرالدين الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، تحقيق: عبد القادر العاني، الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط٣، ١٤١٣هـ، ج٢، ص١١٩.

من القرائن المؤكدة قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٢٣]، فقوله: (لهداكم) عام، وقوله: (أجمعين) أكد ذلك العموم.

٤ – **القرائن الصارفة**، إن القرائن الصارفة هي: «التي تفيد عدم إرادة ظاهر اللفظ، أو عدم إرادة حكمه في المستقبل»[٢٤].

وتقسم القرائن الصارفة إلى قسمين هما:

الأول: قرائن تصرف اللفظ عن ظاهره وحقيقته، وأُطلق عليها القرائن المؤولة.

الثاني: قرائن تصرف اللفظ عن إرادة حكمه في الزمن المستقبل، وهي القرائن الناسخة.

وهذا القسم يشمل التأويل في أحد معانيه والذي هو: «صرف الكلام عن ظاهره إلى وجه يحتمله»[٢٥]. في هذا النحو من القرائن يحتاج المتتبع إلى سعة في إحاطة الألفاظ والمعاني، والانتقال من الظاهر إلى غيره، وهو الباطن الذي يُنتقل إليه بواسطة التأويل، فبين قرائن مؤولة وأخرى ناسخة، يحتاج المتتبع إلى إعمال فكر في تحديد المراد بها وما تدل عليه.

إن القرائن الصارفة هي: التي تصاحب النص فتصرفه عن المعنى الأول إلى المعنى الآخر الذي يراد. ومن القرائن الصارفة قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[٢٦]، وهي مثال على القرينة الصارفة بواسطة (المجاز) عن المراد بالحقيقة، فإن إسناد (فما ربحت) إلى (تجارتهم) من باب المجاز العقلي، لأن الفاعل ليس (التجارة) بل هو (المنافق).

□ تقسيمات القرائن اللفظية

إن القرائن اللفظية تقسم إلى ستة أقسام مهمة، ولا بدّ –هنا– من ذكرها والاطلاع عليها، وهي[٢٧]:

---

(٢٣) سورة الأنعام، الآية ١٤٩.

(٢٤) نزار معروف بنتن، القرائن وأهميتها في بيان المراد من الخطاب عند الأصوليين والفقهاء، مصدر سابق، ص ٨٢.

(٢٥) أبو الوليد الباجي، إحكام الفصول في أحكام الأصول، تحقيق: عبد المجيد تركي، بيروت – لبنان: دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٤١٥هـ، ص ١٧٢.

(٢٦) سورة البقرة، الآية ١٦.

(٢٧) انظر: عبد الهادي الفضلي، دروس في أصول فقه الإمامية، مصدر سابق، ج٢، ص ٧٥ – ٨١.

١- **العلامة**: وقد حصرها أصحاب الاختصاص بالحركات الإعرابية وهي:

أ -الحركات القصيرة: الضمة، الفتحة، الكسرة.

ب- الحركات الطويلة: الواو، الألف، الياء.

٢- **الصيغة**: ويراد بها: مجيء الكلمة على هيئة خاصة للدلالة على معنى معين، كما في:

أ - صيغة الفعل المبني للمعلوم، والتي تدل على أن مرفوعها فاعل.

ب- صيغة الفعل المبني للمجهول، والتي تدل على أن مرفوعها نائب فاعل.

جـ- صيغة المفعول المطلق -إذا كان مصدرًا- التي تدل عليه بمعونة قرينتي العلامة والدلالة.

د - صيغة المفعول له التي لا تأتي إلَّا مصدرًا فتدل عليه بمساعدة قرينتي العلامة والدلالة إذا كان منصوبًا، أو قرينتي العلامة والدلالة، أو الأداة (لام التعليل) إذا كان مجرورًا.

هـ- صيغ الضمائر لأنها تدل على الحالة الإعرابية للضمير رفعًا أو نصبًا في الضمائر المنفصلة، ورفعًا أو نصبًا وجرًّا في الضمائر المتصلة.

٣- **الرتبة**: وتأتي في تعيين المبتدأ والخبر، والفاعل والمفعول به. وتقوم قرينتها في حالة فقدان القرائن الأخرى المعيّنة والمميزة لكل من المبتدأ والخبر أو الفاعل والمفعول، حيث تخضع الجملة للترتيب الأولي لها، فيعرب الاسم الأول لها: مبتدأ، ويعرب الاسم الثاني: خبرًا، وذلك في الجملة الابتدائية.

٤- **الأداة**: ويراد بها ما يعرف بالأدوات العاملة في الأسماء عند النحاة، مثل: (كان وأخواتها)، و(إن وأخواتها)، وما شاكل ذلك.

٥- **الأسلوب**: ويراد به -هنا- اختلاف الحركة الإعرابية المقترن باختلاف التركيب أو الصورة اللفظية، مثل: اسم الفاعل المستعمل بأسلوبين هما: منونًا فيقتضي الأسلوب مجيء مفعوله منصوبًا، وغير منون فيقتضي الأسلوب مجيء مفعوله مجرورًا بإضافته إليه. ومثل: الفصل بين المصدر وفاعله المضاف إليه بمفعوله، ومثل: المصدر مع فاعله ومفعوله، ومثل: المصدر المقصود به الدوام.

٦- **السياق**: ويراد به نظم الكلام وما يشتمل عليه من دلائل تحدد وتعين على إعراب، وفهم، وتوجيه المراد، وسنتكلم عنه بمبحث مستقل كونه من أهم القرائن في التفسير.

□ السياق ودوره كقرينة في تفسير القرآن الكريم

تعريف السياق لغةً واصطلاحًا

السياق لغة: مصدر من الجذر اللغوي (س و ق)، وهو يشير إلى دلالة الحدث، وهو التتابع[٢٨]. فهو مأخوذ من السوق، يقال: ساقه يسوقه سوقًا، وتساوقت الإبل، أي: تتابعت. ويرتبط السوق بالكلام والحديث، فيدل على (السرد)، وسياق الكلام: أسلوبه الذي يجري عليه[٢٩]. وقيل بأنه من (السَّوَقَ) بمعنى: البعث على الحركة من جهة الخلف إلى الأمام[٣٠].

السياق اصطلاحًا: إن «السّياق إطار عامّ تنتظم فيه عناصر النّصّ ووحداته اللّغويّة، ومقياس تتّصل بوَساطَتِه الجُمل فيما بينها وتترابط، وبيئة لغوية وتداوليّة ترعى مجموع العناصر المعرفية التي يقدمها النّصّ للقارئ. ويضبط السّياقُ حركاتِ الإحالة بين عناصر النّصّ، فلا يُفهَم معنى كلمة أو جملة إلا بوصلِها بالتي قبلها أو بالتي بعدها داخل إطار السّياق»[٣١].

إن السياق بوصفه مكوّنًا من مكونات نظام التواصل، فـ«هو الذي يولد الوظيفة المرجعية للكلام، لأن إحدى وظائف اللغة الأساسية أنها تحيل على الإطار الخارجي للغة»[٣٢].

وقد استعمل السرخسي السياق بمعنى (الغرض) الذي سيق لأجله الكلام، إذ يقول: «فيكون النص ظاهرًا لصيغة الخطاب نصًا باعتبار القرينة التي كان السياق لأجلها»[٣٣].

وتحدث السيد محمد باقر الصدر عن السياق قائلًا: «ونريد بالسياق كل ما يكتنف اللفظ الذي نريد فهمه، من دوال أخرى، سواء كانت لفظية، كالكلمات التي تشكل مع اللفظ الذي نريد فهمه كلامًا واحدًا مترابطًا، أو حالية كالظروف والملابسات التي تحيط

---

(٢٨) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج٢، ص ٤٥٦.
(٢٩) انظر: جار الله الزمخشري، أساس البلاغة، مصدر سابق، ج١، ص ٤٨٤.
(٣٠) انظر: المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج ٥، ص ٢٧١.
(٣١) عبد الرحمن بو درع، منهج السياق في فهم النص، الدوحة – قطر: أوقاف قطر، ط١، ٢٠٠٦م، ص ٤٣.
(٣٢) عزيز عدمان، دراسات في البلاغة العربية والنقد الأدبي القديم، بيروت – لبنان: عالم الكتب الحديث، ط١، ٢٠١١م، ص ٢١٥.
(٣٣) أحمد بن أبي سهل السرخسي، أصول السرخسي، تحقيق: أبو الوفا الأفغاني، حيدر آباد: لجنة إحياء المعارف العثمانية، ط١، ١٤١٤هـ، ج ١، ص ١٦٤.

بالكلام وتكون ذات دلالة في الموضوع»[٣٤].

وعرف محمد علي الرضائي السياق قائلًا: «السياق: هو عبارة عن خصوصية الكلمة أو الكلام الحاصل من ارتباط العبارات، وتعتبر إحدى القرائن المرتبطة بالكلام وتأثيرها في الظهور وما يراد بالمعنى للمفردات والجمل من أصول المحاورة العقلائية، ويعم تأثيرها هذا الكثير من اللغات المختلفة، واعتمدها العلماء المسلمون والمفسرون في فهم وتفسير الآيات القرآنية»[٣٥].

أهمية السياق

إن للسياق دورًا مهمًّا في فهم النصوص عمومًا، وفي فهم النص القرآني بشكل خاص، وله أهمية في تحديد المعاني، وفي ضبط الدلالات، وتظهر أهمية السياق متحددة في النقاط الآتية[٣٦]:

١- يعين السياق على بيان المعنى وعلى تحديده.

٢- إن للسياق أهمية في بيان صحة التفسير، والترجيح في حال الاختلاف.

٣- إن السياق مهم في بيان المناسبات على اختلاف أنواعها، كمناسبات السور، ومناسبات الآيات، ومناسبات القصص القرآني، ومناسبات أسماء السور القرآنية.

٤- إن السياق يعين على تحديد أسلوب الكلام، وبالخصوص في موارد مخالفة الظاهر، أو التردد ما بين الوضوح والخفاء، أو الإعلام والإبهام.

أركان السياق

إن للسياق ثلاثة أركان مهمة هي[٣٧]:

١- **السباق**: إذ يعد السباق ركنًا مهمًّا لبيان معنى السياق، إذ لا يمكن معرفة معنى الكلام من دون الرجوع إلى ما يسبقه من عبارات، والتي هي قرائن المعنى وما شاكلها،

(٣٤) محمد باقر الصدر، دروس في علم الأصول، الحلقة الأولى، بيروت - لبنان: دار التعارف، ط١، ١٤٠٦هـ، ص١٠٣.

(٣٥) محمد علي الرضائي، منطق تفسير القرآن، مصدر سابق، ص ٣٥٣.

(٣٦) انظر: تهاني بنت سالم باحوريث، أثر دراسة السياق القرآني في توجيه معنى المتشابه اللفظي في القصص القرآني، رسالة ماجستير، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، ١٤٢٨هـ، ص ٥٧-٧٠.

(٣٧) انظر: تهاني باحوريث، أثر دلالة السياق القرآني في توجيه المتشابه اللفظي، مصدر سابق، ص ٧١ - ٧٥.

فالسباق هو الكلام الذي يبين معنى ما بعده.

٢- **اللحاق**: المقصود به إدراك شيء لشيء، وتجاوزه إلى ما بعده، فهو الكلام الذي يبين معنى ما قبله.

٣- **ألفاظ الكلام**: وهذا الركن يقوم على ثلاثة أمور:

الأمر الأول: المفردات، إذ إن المفردة هي مفتاح النص، وعن طريق النظر إليها يمكن معرفة ما في النص من دقائق المعاني، وخفايا الإشارات.

الأمر الثاني: هيئة الكلمة، وذلك بمعرفة تصريفها واشتقاقها؛ فإن المعاني تختلف باختلاف ذلك.

الأمر الثالث: النظر في نظم الجملة الواحدة، ثم في نظم الجمل وعلاقتها بعضها ببعض.

مكونات السياق

إن السياق يتكون من مكونين رئيسين هما[٣٨]:

١- **السياق المقالي**: وهو الذي يوجب خصوصية العمل اللغوي، ويكون ذو بعد دلالي تركيبي. ويتضمن هذا السياق مبنى الخطاب، ويسمى بسياق المقال، أو سياق النص، ويقسم إلى قسمين:

الأول: مقالي متصل، وهي عناصر لغوية من كلمات أو جمل سابقة أو لاحقة تكشف عنصرًا لغويًّا آخر غير معروف، وتقع معه في نفس السياق[٣٩].

الثاني: مقالي منفصل، وهي التي ترد في نص أو نصوص أخرى مستقلة عن النص الذي يراد بيان معناه، وقد يطلق عليه عند البعض مصطلح السياق الأكبر.

٢- **السياق الحالي**: وهو الأمر الداعي الى الكلام مكيف بكيفية مخصوصة مناسبة، ومن أمثلته: حال خلو الذهن، وحال التردد، وحال الإنكار، وهذه الأمور تتعلق بالمخاطب إذا كان خالي الذهن يتوجه له القول خاليا من المؤكدات نحو: محمدٌ ذاهبٌ.

---

(٣٨) انظر: صابر الحباشة، مغامرة المعنى من النحو الى التداولية: قراءة في شرح التلخيص للخطيب القزويني، دمشق – سوريا: صفحات للدراسات والنشر، ط١، ٢٠١١م، ص ١٤٩.

(٣٩): انظر: موسى العبيدان، دلالة تراكيب الجمل عند الأصوليين، دمشق – سوريا: الأوائل للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٢م، ص ٢٥٦.

أما إذا كان مترددًا بين تصديق الذهاب من عدمه، فنستعمل مؤكدًا واحدًا نحو: إن محمدًا ذاهبٌ. وأما إذا كان المخاطب منكرًا تمامًا لمسألة الذهاب، فعند ذلك يحتاج الى مؤكدين أو أكثر لإزالة حال الإنكار العالق بذهنه نحو: إنَّ محمدًا لذاهبٌ.

أنواع السياق

لقد أورد المختصون للسياق أربعة أنواع هي(٤٠):

١- **سياق المفردات**: وهو اقتران ونظم المفردات بعضها إلى بعض، من أجل تشكيل جملة خاصة، تتحقق بها خصوصية تضيف معنى جديد، أو تحدد معنى، أو تشير إلى معنى مراد.

٢- **سياق الجمل**: وهو دلالة الجمل على جمل أخرى، إذ قد تكون الجملة في آية قرآنية معينة قرينة على معنى لجملة أخرى، تؤثر في معناها أو تحدد أو تشخص معنى معين من بين المعاني المحتملة.

٣- **سياق الآيات**: حيث تشكل الآيات السابقة للآية والآيات اللاحقة جوًّا ذا معنى خاص يضيف للآية خصوصية ومعنى خاص، فإن سياق الآيات له تأثير في ظهور المعنى لآيات أخرى.

كما أن الآيات تارة تكون قصيرة وتارة تكون طويلة، وقد تكون الآية كلمة واحدة فقط، وقد تكون أكثر من ذلك، فإن سياق الآيات التي هي أقل من جملة واحدة إنما هو بحكم سياق المفردات، أما سياق الآيات التي تتكون من جملة واحدة أو أكثر فهو بحكم سياق الجمل.

٤- **سياق السور**: وقد بحث من جهتين:

أ- سياق الآيات في داخل كل سورة: إذ إن لكل سورة جوها الخاص بها، وهدفها.

ب- السياق الناتج من ارتباط الآية الأخيرة في السورة مع الآية الأولى في السورة التي بعدها، وهذا ما ذهب إليه بعض العلماء.

إن سياق السور يسمى بـ(السياق القرآني العام)، ذلك أنه شامل لجميع سور القرآن الكريم، كونها كل مترابط، ذات أهداف معينة، تجمعها عبارة أن القرآن هو (كلي الهداية).

---

(٤٠) انظر: محمد علي الرضائي، منطق تفسير القرآن، مصدر سابق، ص ٣٥٦ - ٣٥٩.

سمات السياق

إن السياق القرآني يتسم عن السياق البشري العادي بعدة سمات منها:

١- **الضبط**: ويراد به «ضبط السياق القرآني لفهم المتلقي؛ فالسياق هو صاحب السلطة في تحديد دلالة الألفاظ ومعانيها المقصودة، فهو الضابط لفهم المتلقي، ذلك أن الألفاظ إذا تركت على عواهنها دون عقال، حملت ما يراد وما لا يراد من معانٍ، لذا كان السياق القرآني مقيدًا ومحددًا للمعاني»(٤١).

٢- **عدم التفكك والتجزُّؤ**: ويراد به أن «القرآن يتسم بالترابط والتشابك بين آياته، فلا انفصال، ولا انقطاع، وذلك يعود لترابط المعاني وتتابعها -ولا ريب- فالقرآن كلام واحد وسياق متواصل من أوله إلى آخره»(٤٢).

٣- **مرونة السياق وحيويته**: إن السياق «يتمتع باحتمالية عدة معانٍ، ذلك أن دلالاته متنوعة، ومرونة السياق مظهر إيجابي يدعو إلى إذكاء عقل المجتهد، وعدم قصره على معنى واحد لا غير، وفي الوقت نفسه يضبط بضابط السياق؛ إذ يعطيه مجالًا محددًا في المعاني والمفاهيم، وهذه المرونة والحيوية هي ما عُرف فيما بعد بعلم التأويل»(٤٣).

دور السياق الدلالي

إن للسياق أثرًا ودورًا كبيرًا في الدلالة على الألفاظ، وما يتعلق بذلك من موارد التبيين والتوضيح، ويظهر ذلك ويتجلى في العناصر الآتية:

أولا: أثر القرائن السياقية في وضوح دلالة اللفظ على معناه، إن دلالات الألفاظ تتفاوت في درجات وضوحها(٤٤)، وقد رُتبت على أربع مراتب: الظاهر، والنص، والمفسر، والمحكم(٤٥)، وهي بهذا الترتيب تتجه إلى الأكثر وضوحًا وهو المحكم.

إن ترتيبها بهذا النحو من الترتيب؛ إنما بسبب القرائن السياقية ودورها فيها، فإن الذي يحتمل أن تقوم القرائن بصرفه عن معناه الظاهر إلى غيره يكون أقلها وضوحًا وهو

---

(٤١) المثنى عبدالفتاح محمود، نظرية السياق القرآني، الأردن - عمان: دار وائل للنشر، ط١، ٢٠٠٨م، ص٥٤.
(٤٢) المثنى عبد الفتاح محمود، نظرية السياق القرآني، مصدر سابق، ص٥٤.
(٤٣) المثنى عبد الفتاح محمود، نظرية السياق القرآني، مصدر سابق، ص٥٤.
(٤٤) انظر: عبد المجيد السوسة، بحوث معاصرة في أصول الفقه، دار المسيرة للطباعة، ط١، ٢٠١١م، ص٢٣٩.
(٤٥) انظر: أبو الحسن البزودي، كنز الوصول إلى معرفة الأصول، كراتشي - الباكستان: مطبعة جاويد بريس، د.ط، د.ت، ج ١ص، ٨.

ما يسمى بالظاهر أو (النص)، أما الواضح مما تقوم القرائن على تأكيد دلالته وقطعيته، ولا تصرفه عن معناه فهذا سيكون في أعلى الدرجات من الوضوح، ويسمى بالمفسر أو (المحكم)، وبذلك تبين دور القرائن السياقية في اللفظ الواضح، وكذلك الحال في المفسر، وباقي تطبيقات القرائن السياقية في الدلالة والتوضيح وتبيين المراد.

ثانيًا: دور السياق في التوضيح ورفع الإبهام، إن من الأمور الّتي تُعين المفسِّر على تحديد المراد هو السياق، فإنّه من أفضل القرائن الدّالة على المراد، ومن أهمله فإنه سيفقد أحد من أهمّ الدلالات، وسيقع في الخطأ، وهنا أمثلة مهمة هي:

المثال الأول: قال تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾(٤٦).

فنجد -هنا- أنّ سياق الآيات يدلّ على أنّ المراد من العزيز الكريم هو: (الذليل الحقير)، وليس عكس ذلك، وهذا يعلم بتكملة القراءة كاملة ليتم السياق كاملًا. قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاء الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾(٤٧).

من هنا يتأكد أن «لزوم مراعاة السياق لا يعني أنّ القرآن الكريم يعتمد الأسلوب عينه الّذي تعتمده المؤلّفات والكتب البشرية بحيث يأخذ البحث في موضوع محدَّد فإذا فُرغ منه يُبتدئ بموضوع جديد، وذلك بشكل متسلسل. بل نجد أنّ القرآن الكريم ربما يتعرّض للموضوع الواحد في عدّة موارد وفي كلّ مورد يأخذ طرفًا من الموضوع، وذلك بحسب الهدف والغاية الّتي اقتضت التعرُّض لهذا الموضوع أو ذاك»(٤٨).

المثال الثاني: قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٤٩).

إن جملة ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ من الآية المباركة المتقدمة تتردد في عدة معانٍ، وقد ذكر لها المفسرون احتمالين هما:

الأول: أن يكون مقصودها أن الله سبحانه وتعالى يزيد في أجنحة الملائكة ما يشاء.

الثاني: أن يكون مقصودها أن الله سبحانه وتعالى يزيد في خلق المخلوقات ما يشاء.

---

(٤٦) سورة الدخان، الآية ٤٩.

(٤٧) سورة الدخان، الآيات ٤٧-٤٩.

(٤٨) تمام محمد السيد، ألفاظ وتراكيب ودلالات جديدة في السياق القرآني، رسالة ماجستير قدمت إلى كلية الآداب في جامعة الشرق الأوسط، تموز ٢٠١٠م، ص ٢٣.

(٤٩) سورة فاطر، الآية ١.

إن كلا التفسيرين ينسجم مع ظاهر الآية، واختيار أي منهما لن يؤدي إلى اختلال أو تعارض داخل النص، وإن كان سياق الآية في مورد الملائكة هو الأكثر انسجامًا مع المقصود الأول(٥٠).

أما السيد محمد حسين الطباطبائي صاحب الميزان فقد اعتبر الجملة غير خالية من الإشارات إلى أن من الملائكة ما له أكثر من أربعة أجنحة(٥١).

المثال الثالث: توضيح الفرق في الألفاظ المستخدمة في القرآن الكريم من خلال مفردات قرآنية معناها يخالف المعنى العرفي، وتتوضح دلالاتها من خلال السياق الحاكم.

ونجد ذلك تطبيقا على لفظ (المطر) إذ لا تجد القرآن الكريم يذكره إلَّا في حال الانتقام، رغم أن الأكثر لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر (الغيث)(٥٢)، ذلك أن الغيث هو الماء المنسكب من السماء رحمة وخير للعباد، كونه سبب النماء والزرع والناس.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٥٣).

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾(٥٤).

بينما دل المطر على عذاب الله تعالى على الأقوام الكافرة عقابًا لهم بسبب غيهم وكفرهم(٥٥).

قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾(٥٦).

وقال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾(٥٧).

---

(٥٠) محمد علي الرضائي، منطق تفسير القرآن، مصدر سابق، ص ٣٦٢.

(٥١) محمد حسين الطباطبائي، تفسير الميزان، ج١٧، ص ٧.

(٥٢) انظر: أبو عثمان الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط٧، ١٤١٨هـ، ج١، ص٢٠.

(٥٣) سورة لقمان، الآية ٣٤.

(٥٤) سورة الشورى، الآية ٢٨.

(٥٥) عودة خليل أبو عودة، التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم، الزرقاء – الأردن: مكتبة المنار، ط١، ١٤٠٥هـ، ص٥٠٨.

(٥٦) سورة هود، الآية ٨٢.

(٥٧) سورة الشعراء، الآية ١٧٣.

إن لغة التنزيل قد «فرقت بين المطر والغيث؛ فكان المطر عذابًا وشرًّا ونذرًا بالويل والثبور، وكان الغيث رحمة وخيرًا ونعمًا»[٥٨].

وبذلك يتبين ما للسياق من دور في تحديد المراد من الكلمات والجمل وحتى الآيات، فإن السياق مهم جدًّا، وهو أساس في التفسير، وأن له أسسًا وأساسيات يجب فهمها والإحاطة بها.

المثال الرابع: توضيح الفرق ما بين مفردتي (جاعل) و(خالق) في سياقين مختلفين في آيات القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾[٦٠].

إن الله سبحانه وتعالى استعمل في الآية (٣٠) من سورة البقرة كلمة: (جاعل)، بينما في سورة الحجر الآية (٢٨) استعمل كلمة: (خالق)، فما هي علة ذلك؟

يرى السيد محمد حسين الطباطبائي أن (الجعل) في سورة البقرة، يراد منه (الخلافة)، شارحًا رأيه قائلًا: إن السياق يشعر بأن المراد هو الخلافة، وإن الخلافة المذكورة إنما كانت خلافة الله تعالى، لا خلافة نوع من الموجود الأرضي ممن كانوا في الأرض قبل الإنسان وانقرضوا ثم أراد الله سبحانه وتعالى أن يخلفهم بالإنسان كما احتمله بعض المفسرين، وذلك لأن الجواب الذي أجاب سبحانه وتعالى به عنهم -وهو تعليم آدم الأسماء- لا يناسب ذلك، وعلى هذا فإن الخلافة ليست مقصورة على آدم فقط، بل بنوه يشاركونه فيها من غير اختصاص، ويؤيد عموم الخلافة آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾[٦١].

وغيرها من الآيات القرآنية[٦٢]، فهنا الجعل -بحسب كلام السيد الطباطبائي- هو

---

(٥٨) إبراهيم السامرائي، من وحي القرآن، اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري، بغداد - العراق، ط١، ١٤٠١هـ، ص ١٢٧.

(٥٩) سورة البقرة، الآية ٣٠.

(٦٠) سورة الحجر، الآية ٢٨.

(٦١) سورة الأعراف، الآية: ٦٩.

(٦٢) سورة يونس، الآية ١٤، وسورة النمل، الآية ٦٢.

الخلافة، خلافة الأرض من قبل الإنسان[٦٣].

أما المراد بـ(خالق)، وبحسب كلام السيد الطباطبائي -كذلك- أن المراد بذلك هو: بدء خلق الإنسان، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾[٦٤]. فقد أيد السيد الطباطبائي هذا القول[٦٥].

□ الخاتمة وأهم النتائج

نخلص من هذه المطالعة إلى جملة من النتائج، متحددة في النقاط الآتية:

١- إن القرائن تعد مهمة في كل العلوم، وتتأكد في فهم المراد القرآني، أي في تفسير القرآن الكريم.

٢- إن القرائن تنقسم بحسب المراد منها إلى أقسام، وهذا ما يجب التنبه له عند البحث والكتابة، والأهم عند التطبيق والتمثيل لها.

٣- إن من أهم القرائن مسألة السياق، وتتأكد أهميتها في التفسير أكثر من أي مجال آخر، لذلك يجب توضيحه بشكل صحيح وواضح.

٤- إن الكلام في السياق كثير ومتشعب، وفي كل علم من علوم العربية هناك وجهة نظر، والأهم أن يُبين المراد منه في القرآن الكريم.

٥- إن السياق هو الحاكم في كثير من الآيات تفسيريًّا، وهنا تتبين أهميته وأهمية القرائن في التفسير.

---

(٦٣) محمد حسين الطباطبائي، تفسير الميزان، قم - إيران: مطبعة ثامن الحجج، ط١، ١٤٢٦هـ، ج ١، ص٥٤-٥٥.

(٦٤) سورة السجدة، الآيات ٧ - ٨.

(٦٥) محمد حسين الطباطبائي، ، تفسير الميزان، مصدر سابق، ج١٤، ص ١٥٠.